الاستلزام التخاطبي في التراث اللساني العربي. عدد١. مجلة علوم اللغة العربية وآدابها.

محمد بن باقر المجلسي. (١٩٨٣م). **بحار الأنوار لدرر الأخبار الأئمة الأطهار** (المجلد ٢). بيروت، لبنان: مؤسسة الوفاء.

محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني. (١٩٩٩). **إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأُصول**. (دار الكتاب العربي، المحرر، و د. ولي الدين صالح فرفور ، الشيخ أحمد عزو عناية، الشيخ خليل الميس، المترجمون) دمشق، كفر بطنا، سوريا: المجلد الاول.

محمد مدور. (٢٠١٤م). الأفعال الكلامية في القرآن الكريم(سورة البقرة)دراسة تداولية. باتنة، الجزائر: جامعة الحاج لخضر.

محمد, د. سعدية مصطفى محمد. (بلا تاريخ). الأفعال الكلامية في قصة توفيق الحكيم القصيرة(الشيطان ينتصر) دراسة تداولية. مصر: كلية الألسن, جامعة عين شمس.

مدور, محمد مدور. (٢٠١٤م). الأفعال الكلامية في القرآن الكريم(سورة البقرة)دراسة تداولية. باتنة، الجزائر: جامعة الحاج لخضر.

نعمان بوقرة. (بت). المصطلحات الأساسية في لسانيات النَّص وتحليل الخطاب دراسة معجمية.

فَشَل التواصُل في سيميائيَّة التداوُل

Failure of communication in the semiotics of trading

أ. د. صالح هادي القريشيّ(*)
Dr. salih hadi shammam
Salih_alqurishy@yahoo.com

الملخص:

اهتمت التداولية منذ ظهور منهجها في الدرس اللساني المعاصر، بدراسة كيفية نجاح الفعل التواصلي اللغوي، واضعة الآليات والشروط لهذا النجاح، في دراسات متعددة، ومؤلفات كثيرة. غير أن هناك جانبا آخر للحدث التواصلي اللغوي التداولي، يتمثل في أن الحدث التواصلي اللغوي قد يفشل أحيانا، مما يؤدي الى توقف العملية التواصلية، فما المؤشرات اللفظية وغير اللفظية الدالة على فشل التواصل تداوليا؟

هذا ما تناولته هذه الدراسة، راصدة العوامل التي تعترض التواصل السيميائي التداولي، ما يؤدي الى فشله تداوليا، وهذا يعني أن تجاوز ما شخصته هذه الدراسة، يعني نجاح الحدث التواصلي تداوليا.

الكلمات المفتاحية: التواصل، التداولية، سيمياء، فشل اللغة، الخطاب.

(*) **كلية الآداب/ الجامعة المستنصرية**

ABSTRACT

Since the emergence of its approach to contemporary linguistic study, pragmatic has been interested in studying how the linguistic communication act works, setting the mechanisms and conditions for this success, in multiple studies and many literature. However, another aspect of a pragmatic linguistic communication event is that a linguistic communication event may sometimes fail, leading to the interruption of the communication process. What are the verbal and non-verbal indications of a circular failure of communication? This is what this study dealt with, balancing the factors that.

المقدمة

منـذ أن نشـأت اللغـة والغايـة التواصلية حاضرة في ذهن مـن ابتدعها، إلهيـاً كان مصدرها أو بشـرياً، بـل لا أغالي إذا قلت إن الهدف من إيجـاد اللغة هو التواصل، مثلما ان الغاية من إيجاد الخليقة بعـد أداء حق الله بالعبادة، التعارف والتواصـل، ((**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُـعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا**)) الحجرات/١٣؛ لأن التواصل السليم غاية نبيلة من غايات الخلق، ولأن كل المخلوقات لا بد أن تنتظم في جماعات بشرية، كان من الضروري أن يكون هناك سبيل الى التواصل بينهم. لذلك عرفنا أن كل الاهتمامات اللغوية منذ القدم، عند جميع الشـعوب والأمم إغريقية ورومانية وصينية وعربية.... وغيرها، كانت تهتم بدراسـة التواصل البشـري، ومعرفة آلياته، وتحليلها، وذكر السـليم من هذه الآليات والتشـجيع على اتباعه والتمسك به؛ لأننا لا يمكن لنا أن نتخيل مجتمعا من دون تواصل، بشـريا كان هذا المجتمع أو غير بشـري،((**وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَـمٌ أَمْثَالُكُم**)) الأنعام /٣٨، وهكذا الحال في الدرس اللغـوي العربي، وفي القران الكريم، وهكذا هو الحال اليوم في اللسانيات الحديثة وفي أحدث منهج تواصلي اهتم به المهتمون في العالمين العربي، وغيـر العربـي، وهو المنهج التداولي. فقد اهتـم المنظّرون لهذا المنهج بالتواصـل أيّما اهتمام، وتأتّى اهتمامهـم (بالخطاب/الملفوظ) دليلا على اهتمامهم بكيفية التواصـل، ونجاح الغرض التواصلي، بدءا بالرموز المنطوقة، وصولا الى أطراف العملية التخاطبية (المرسـل والمرسـل اليه والرسالة)، فضلا عـن الظـروف الزمانية والمكانية، وسـياق المقال، ومقتضى الحال، والتعاون الخطابي لفهم الرسـالة ونجاح الإنجازية المقصودة... وكل ما يخطر في الذهن مما قيل أو لم يقل وهو سـبب من أسـباب نجاح التواصل.

وأمام كل هذا الاهتمام بالمنتج الخطابي وتوفير أسباب نجاحه لا بد من الوقوف على الجانب الآخر لنجاح الحدث التواصلي الذي يتمثل بفهم معوقات نجاح العملية التواصلية، وقد أسميته (فشل التواصل)،

ويضم تحت جناحه انخفاض مسـتوى التواصل أيضا، ولأن اهتمام المنهج التداولي بالتواصل، ولأن اسـاس العملية التواصلية هو اللغة، ولأن النظر الـى الرموز اللغوية علـى أنها نوع من السـيميولوجيا، فقـد سـوّغ لي ذلك أن أسـمي اللغة التداولية (سـيميائية التداول)؛ لأنها تعتمد الرمـوز اللغوية وغير اللغويـة لإيصال الفكرة التداوليـة الـى المتلقي واضحة سـليمة ناجحة. عسـى أن أكون وفقت في تسـليط الضوء على هـذا الجانـب، أو على الأقل اننـي ألفت النظر للاهتمـام بهذا الجانب، الذي يبدو أنه ليس لغويا فقـط، بل لا بـد من إلمامات سـلوكية نفسـية، ومعرفـة انثروبولوجية،...وأسـباب أخـرى قد يقف عليها من توسّع في هذا الأمر.

التواصل والمنهج التداولي:

افضت الدراسـات اللسـانية الحديثة، الى ظهـور منهج لسـاني حديث – نوعـا ما، حاز الذيوع والانتشـار؛ لانه مسـتمد من الدراسات اللسـانية الاجتماعية، فتناولته الفلسفة التحليلية بوصفه جانبا اجتماعيا، ألا وهو المنهج التداولي، الذي يركز على المشتركات بين أطراف العملية التخاطبية، لإحراز التواصلية، التي تركز على الجانـب الاسـتعمالي، لا القواعدي التشـكيلي، الذي يفضي الى مقيدات، (فالتداولية ليست علما لغويـا محضـا، بالمعنى التقليـدي، علما يكتفي بوصف وتفسـير البنـى اللغويـة ويتوقف عند حدودها، وأشـكالها الظاهرة، ولكنها علم جديد للتواصـل يـدرس الظواهر اللغويـة في مجال الاسـتعمال، ويدمج – من ثم – مشاريع معرفية متعددة في دراسـة ظاهـرة «التواصل اللغوي وتفسيره» وعليه فأن الحديث عن التداولية وعن شبكتها المفاهيمية يقتضي الإشارة الى العلاقات القائمة بينها وبين الحقول المختلفة...فنحن نرى أن التداوليـة تمثل حلقـة وصل هامة بين حقول معرفيـة عديدة منها الفلسـفة التحليلية ممثلة في فلسـفة اللغة العادية، ومنها علم النفس المعرفي ممثـلا في نظريـة الملاءمة علـى الخصوص ومنها علوم التواصل، ومنها اللسـانيات بطبيعة الحال)(التداولية عند العلماء العرب – مسعود صحراوي:١٦)،كل هذه الجوانب تستحضرها التداولية لفهم الملفوظ/الخطاب ؛ لأنه يسـهم في بنـاء التواصل الذي هو غايـة التداولية، وغاية اللغـة، وأن (التواصـل اللغـوي يقصـد به نقل المعاني بين المرسل والمستقبل باستعمال اللغة ، فعندما يتصل الإنسان بغيره اتصالا لغويا بغية التعبير عن الذات ونقل المشـاعر والأحاسـيس فهو إما أن يكون متحدثا، وإما أن يكون مستمعا، وإمـا أن يكـون كاتبا، وإمـا أن يكـون قارئا ، وفـي كل الحالات يمر الإنسـان بعمليات عقلية مضمونهـا ومادتهـا اللغـة. وعمليـة التواصل اللغوي تتـم عادة عن طريـق التفاعل المتبادل بيـن طرفيـن (مرسِـل) و (مسـتقبل) وبينهما رسـالة لغوية (مكتوبة) أو (منطوقة) تسير في قناة تواصل لتؤدي إلى إشباع حاجات التواصل اللغـوي، كالتعبير، أو الإفهـام، أو الإقناع، أو التأثير ، باسـتخدام قدر من الكفاءة اللغوية لدى كل مـن المتحـدث أو المسـتمع، أو الكاتب، أو القـارئ عن طريق اسـتخدام مهـارة لغوية أو أكثـر، وفي إطار مجال مـن مجالات التواصل

اللغـوي (المكتـوب) أو (المنطوق)...)(مدخل التواصل اللغـوي د.محمد البشـري : http:// mountadaelhouria.maghrebarabe. .(topic-net/t٧٥٨

إن مصطلـح (pragmatics) الـذي يعنـي التداوليـة أو الجانب العملـي للغة وليس الجانب القواعدي الشـكلي يتناول دراسة علاقة العلامـات بمفسـريها، فالتداوليـة تولي منتجي اللغـة ومتلقيها اهتماما كبيـرا، فضلا عن اللغة نفسـها، فهي تـدرس الجانب اللغـوي النظامي أي نحـو اللغـة، ودلالة هذا النحـو والتركيب، ولا تسـتغني عن هذين الجانبين، غير أنها تهتم بدراسـة علاقة العلامات بمستعمليها، وهذا هو الجانب الاوسـع فيها. ومـا دامت التداولية تقوم علـى الرموز اللغويـة (سـيميائية اللغة) فنحن نلمس أنها تسـير في منحيين، يقول بيرس (منذ وقـت ليس بالقليل والتداولية تسـير في منحيين : المنحى اللسـاني الذي اسـتعملت التداولية فيه علـى أنها جـزء من السـيميائية، وهـو منحى قوي في الدراسات اللسـانية الاوربية والمنحى البراغماتي الفلسـفي)(برجماتية اللغة ودورها في تشكيل بنية الكلمة (ريم فرحان المعايطة):٨ وانظـر التداولية امتداد شـرعي للسـيميائية – أ.عبـد الحكيـم سـحالية- :٤٢٢ وانظر شـعر المتنبـي في ضوء نظرية افعـال الكلام (محمد هريس):٣ رسالة ماجستير(، فالتداولية اللسانية هناك من نظر اليها على انها تداولية سـيميائية؛ لأن اللغـة نظـام مـن الرمـوز ذات الطبيعـة السيميائية، كما يرى دي سوسور(السيميولوجيا والتواصـل – ايريك بويسـنس – ترجمة جواد بنيـس:٨)، والى ذلك أشـار موريس(التداولية امتـداد شـرعي للسـيميائية – أ.عبـد الحكيـم سـحالية- :٤٢٣)، فـي تعريفـه التداوليـة، إذ وَضَعَنا أمام واحد من اقدم التعريفات للتداولية، ذلـك الـذي يـرى فيـه أن التداوليـة فـرع من السيميائية؛ لأنها تعنى بدراسة علاقة العلامات بمؤوليها، وهذا الكلام وسّـع من دائرة التداولية لتشـمل العلامات اللغوية وغيـر اللغوية(انظر المقاربة التداولية – فرانسـواز ارمينيكو- :٨٠ وانظر التداولية وافعـال الخطاب عند الصادق ع مؤيد بدري السهلاني ص٢٢٨ بحث منشور في مجلة الاسـتاذ ع ٢٠٥ سـنة ٢٠١٣) . وإن كان هنـاك من لـم يرتضِ هذه النظـرة فطرح بديلا لها بما يناسـب توجهه الفكري اللغوي. إن السيميولوجيا تدرس الإجراءات الكفيلة بتحقيق التواصـل بيننـا والآخرين، وهـذه الإجراءات قـد تكون إشـارات لغويـة ، أو إشـارات غير لغويـة، كإشـارات المـرور والإشـارات العسكرية وغيرها(السـيميولوجيا والتواصل، بويسـنس:١١)، إن سـيميولوجيا التواصـل تدرس كل الظواهر التي تدرسـها اللسـانيات، سـواء كانـت علامـات لغويـة أو غيـر لغوية (السـيميولوجيا والتواصـل، بويسـنس:١١)، وعلينـا فهم المنطلق الفكري لإيريك بويسـنس مؤلف كتاب (سـيميولوجيا التواصل) الذي يعدّ كل فعل تواصلي فعلا سـيميائيا(السيميولوجيا والتواصل، بويسـنس:١١)، ويتخلى بويسـنس عـن مصطلح لغة في وصف أشـكال التواصل اللغويـة وغير اللغويـة، فيتبنى لفظ سـيميائية للإشـارة الى اللغات والإشـارات غير اللغوية(السيميولوجيا والتواصل، بويسنس:١١).

ومنـذ أن نشـأ المنهـج التداولـي كانـت غايتـه التركيز على التواصـل بين المتخاطبين (المتحاوريـن)، ونجاح هذا التواصل ، ووضع الآليات السـليمة لضمان اسـتمراره، ولكن من المناسـب تسـليط الضوء على ما يمكن أن نعده سببا في فشل التواصل، وانقطاع الغاية الرئيسة مـن وظيفة اللغة، وقد تمثل لـي ذلك بالوقوف على الجوانب الاتية:

١. العنف اللغوي وفشل التواصل:

ربما لم يتطرق المنهج التداولي الى قضية العنف اللغوي، وأثره في فشـل التواصل – بحسـب قراءاتي – ، واهتم بهذا الجانب علم النفس اللغوي (السـلوكي) ، فنحن حين نتحدث عـن نجـاح التواصـل يعنـي أننا نتحـدث عن الجانب الآخـر المعاكس للعنف اللغوي، وربما يصح له أن نسـميه (السِّـلم اللغوي) ، ولكن لا ضير من معرفة المقصود بالعنف اللغوي؛ لكي نستطيع تناوله على أرضية مشتركة بيننا، تسهم فـي معالجته ، فـ (العنف في اللغة العربية يدور حول محور السـلوكيات، التـي تتضمن معاني الشـدة والقسـوة والتوبيخ واللوم، فهو قد يكون سـلوكا قوليا، أو فعليا، أو إيحاء، اورمزا، ويعد العنف الرمزي اللغوي أحد أكثر أشكال الصراع إنتشـارا في المجتمع...)(عنف اللغة واشكالية التواصـل (مصطفى بحـر محمـد) : http:// www.ahewar.org/debat/show.art. ٤١٠٦١٣=asp?aid مؤسسة الحوار المتمدن العدد٤٤٢٦ منشور في ٢٠١٤/٤/١٦)، وبناء علـى ذلك (فصور العنـف لا تقتصر فقط على الفعل المادي الذي يمارسه الفرد ضد الآخر، بل يتعـداه إلى الحدث اللغـوي، أو الفعل الكلامي، والذي يعبر عن موقف سـيكولوجي، ينبئ عن انفعـال لحظـة التواصل، ما يولـد في كثير من الأحيـان الصدام والعـداء، ما يطرح إشـكالية للتواصل بيـن الأفراد)(عنف اللغة واشـكالية التواصـل (مصطفى بحـر محمـد) : http:// www.ahewar.org/debat/show.art. ٤١٠٦١٣=asp?aid مؤسسة الحوار المتمدن العدد٤٤٢٦ منشور في ٢٠١٤/٤/١٦) .

إن نجـاح التواصـل الحـواري يقـود بـلا شـك الـى أهـم غايـة بشـرية اجتماعيـة خُلـق لأجلها الآنسـان ووصفها القـرآن، وهي التعارف،أي بناء مناخ اجتماعي انسـاني سليم، ((وَجَعَلْنَاكُـمْ شُـعُوباً وَقَبَائِـلَ لِتَعَارَفُوا))، وأن فشـل هذا التعـارف (التواصـل الاجتماعي)، علـى مسـتوى الرمز اللغوي يقـود بالضرورة الى فشـل التواصل الاجتماعي لاحقا، وانقطاع الصلة مسـتقبلا بيـن المتحاوريـن، فضلا عن انقطاعهـا – ربمـا – في لحظة التحـاور، (إن اللغـة العنيفـة قد تتحـول إلى فعل، كأن يسـال شخص آخر سـؤالا عاديا لا يستوجب الغضب أو التوتـر، ليكون رد فعـل المتلقي عنيفا، فهذا فعل يترجـم عدم القبول وإشـارة إلى ضرورة قطع حبـل التواصل معه، والـرد العنيف يعبر هنا عن إشـكالية التواصل التي ستطرح بينهما مستقبلا والتي كان سـببها عنف اللغة.)(عنف اللغة واشكالية التواصل (مصطفى بحر محمد) : http://www.ahewar.org/debat/ show.art.asp?aid=٤١٠٦١٣ مؤسسـة الحـوار المتمـدن العـدد٤٤٢٦ منشـور فـي ٢٠١٤/٤/١٦). وتناول آخرون العنف اللغوي ووضعـوا لـه حـدودا وتعريفـات ومفهومات قد تنطلق مـن ماهية اللغـة وكينونتها، فالعنف اللغوي ما يسهم في فشل التواصل اللغوي ومن

ثم الاجتماعي، وهو التجاوز على المتلقى بألفاظ نابية تسهم في قطع التواصل بينهما، يرى عالم الأصوات الفرنسي «إيفان فوناجي» IVAN FONAGY (أن اللغة في مظهرها الكلامي المنجز عبارة عن تسنين مزدوجDouble encodage، أي أنها نسق تعبيري يعبر عن نمطين من المعلومات : أولا، معلومات ذات طبيعة لغوية أولية أو أصلية تجسدها العلامات اللغوية، من خلال صلة الاعتباط القائمة بين الدال والمدلول؛ وثانيا، معلومات ذات طبيعة ثانوية أو فرعية ملازمة ومصاحبة للأولى ولا تنسلخ عنها. وقد سمى "فوناجي" هذا النوع الثاني من المعلومات: "الأساليب الصوتية" phonostyles. وهذه الأخيرة حاضرة بقوة في كل تلفظ صوتي، وتتكفل بالتعبير عن مشاعر المتكلم وإحساساته ومواقفه الانفعالية الواعية واللاواعية. وبعبارة أخرى، فالمستوى الأول يشمل مظاهر اللغة المعرفية والثقافية والعلمية، بينما يختص المستوى الثاني بالجوانب النفسية والشعورية. وتوجد بين هذين المستويين الاثنين علاقة تحويل transformation وتحريف distorsion سيميائي ودلالي، أي أن المستوى الثاني - بحكم كونه معبرا عن المظاهر النفسية والشعورية لدى المتكلم - يعمل على خلخلة وتشويش (بل تعديل) المعلومات التي يحملها المستوى الأول، فيغدو، بالتالي، مستوى أكثر إمتاعا ومرحا (وكذلك أكثر غنى) من المستوى الآخر. كما يقوم المستوى الثاني بوظيفة تعبيرية تشخص أعراض ما يتلفظ به المتكلم، وتفصح عن خباياه ومكنوناته الدفينة السليمة منها والعليلة. فمن خلال تعبيراته الصوتية، نستشف أصله ومفصله "الجغرافي، واللهجي، والحرفي، العمري، والجنسي..."، وحالاته الشعورية والانفعالية. وبفعل هذا التسنين المزدوج، تصير اللغة نسقا سيميائيا يتضمن مكونين أساسين: مكون النحو وهو عبارة عن نظام من القواعد التركيبية والصوتية والدلالية، ويضطلع بتكوين المفردات والعبارات والجمل اللغوية، ومكون معدِل modulateur ينبغي دمجه داخل بنية النحو نظرا لملازمته له) (لغة العنف وعنف اللغة مقاربة لسانية نفسية أ.د. مراد موهوب ص٥.). إن طبيعة اللغة – سلميةً وعنفيةً – فرضت نفسها على مستعملي اللغة بحكم سلوكيات هؤلاء المستعملين، لذلك ينبغي التعامل مع اللغة بشيء من الحذر، (أكدت «باربرا وتمر» أن العنف أصبح جزءا من التاريخ الفعال لبيئة الخطاب الرمزي الاجتماعي، الذي يؤثر في فهم الذات و السياق، و الذي يجد المشاركون أنفسهم فيهما، كجزء من موروث محفوظ في التاريخ، وهو هنا موروث الأنماط الثقافية للعنف، والتي تعتبر اللغة أحد مكوناتها خصوصا في المجتمعات العربية التي كثيرا ما عانت لسلب الذات و قولبة للشخصية المعقدة و المتشبعة بثقافة العنف في كثير من الأحيان.)(عنف اللغة واشكالية التواصل (مصطفى بحر محمد) : http:// www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=٤١٠٦١٣ مؤسسة الحوار المتمدن العدد٤٤٢٦ منشور في ٢٠١٤/٤/١٦). إذن فالمنهج التداولي واللسانيات عموما لا تسهم في دراسة الجوانب البراقة الإيجابية في العملية اللغوية التخاطبية حسب، بل لا بد من النظر في الجانب الآخر المنفلت إراديا أو لا إراديا (بالفهم الخطأ) ، (إن البحث في خصائص العنف اللغوية

يعد – في تقديرنا - مدخلا طبيعيا لفهم الآليات الكامنة وراء التمثيلات الثقافية والمعرفية التي تفرزها المجتمعات البشرية بهذا الشأن، سواء على مستوى الفرد أو الجماعة. من هنا تأتي أهمية اللسانيات واللسانيات النفسية، على وجه التحديد، لكونها تمكّن من سبر أغوار السيرورات النفسية والمعرفية القابعة خلف كل نشاط لغوي ينتجه الإنسان داخل سياق ثقافي معين)(لغة العنف وعنف اللغة مقاربة لسانية نفسية أ.د. مراد موهوب ص٢).

فللعنف اللغوي مدخل اجتماعي مهم في المنهج التداولي، ما دام جزءا من سلوك في خطاب تواصلي، قاد الى فشل العملية التواصلية، فهو (حدث لغوي أو فعل كلامي يعبّر عن موقف سيكولوجي انفعالي يُنجَز في مقام تواصلي تفاعلي سِمته البارزة التنازع والخصام، فيتولد العداء والكره والبغضاء، بل المضرة والأذى. فهو شعور وانفعال داخلي، وسلوك وردُّ فعل خارجي. وهذان المظهران - الداخلي والخارجي - تعبر عنهما اللغة في كل مستوياتها الرمزية والبنيوية :الصوتية، والمعجمية، والدلالية، والصرفية، والتركيبية... وأما على المستوى التداولي، فإن ألفاظ وتعبيرات العنف تمثل أفعالا لغوية actes de langage إنجازية وتأثيرية، تؤدي وظائف تداولية معينة، وتسهم في بناء الخطابات (discours) العنيفة وتخصيصها بنيويا ونمطيا.)(لغة العنف وعنف اللغة مقاربة لسانية نفسية أ.د. مراد موهوب ص٤)، فقد يبنى التواصل بناء طيبا سليما كما ينبغي وكما تريد له اللغة وقد يفشل التواصل بين الطرفين بفعل الاختيار غير السليم للغة، أو الموقف السلوكي غير المحسوب حسابا متناسقا مع سيرورة الملفوظ وقصديته.

٢. القصدية:

إن ارتباط قصد المتكلم بـ (الملفوظ/ الخطاب) كان حاضرا لدى علماء العرب،(إن أحد علمائنا هو ابراهيم الشيرازي ت ٤٧٦هـ ويعد من الأصوليين كان قد ذكر كلاما ينبئ عن تصور يؤسس لفكرة تداولية صريحة تعتمد هذا المعيار وحده (يقصد معيار القصدية)...بوصفه قرينة اساسية في التفريق بين الظاهرتين الاسلوبيتين (يقصد الخبر والانشاء) وفحوى هذا المعيار عنده ما عُرّف به الكلام بانه يصير خبراً إذا انضم الي اللفظ قصد المتكلم الاخبار به، فقد رأى الشيرازي أن مما يمكن أن يكون رائزا للتمييز بين الخبر والانشاء إضافة الى اللفظ الدال بالوضع على الخبر قصد المتكلم وغرضه من الخطاب، فإن كان غرضه الإخبار مع موافقة اللفظ إياه فهو خبر وإن كان غرضه غير الإخبار فالكلام إنشاء)(التداولية عند العلماء العرب صحراوي:٧٨)، وهذا ما المح إليه اوستن إذ جعل للقصد إلزاما في قبول الملفوظ (بأن ينوي قصدا ما)(نظرية أفعال الكلام العامة جون اوستن:٢٢ وانظر ٢٧ و٢٩ وانظر التداولية عند العلماء العرب:٧١-٧٢)، حتى أن العبارة الانشائية قد لا يراد بها الإنشاء بل يراد بها الإنجاز إذا توفر قصد المتكلم في ذلك(نظرية أفعال الكلام العامة – اوستن -:٣٩)، وقد كان اوستن قد أنشأ أربعة عبارات نُطق بملفوظها من دون قصدية الناظم(نظرية أفعال الكلام العامة – اوستن -:١٦)، فعدَّ ذلك

فاسداً (...أن أربعة منها هي بحيث تجعل العبارة المتلفظ بهـا لا تتوخـى قصد النظـم، فتخطئ الهـدف، وكل فعـل تمكنت التهمـة فيه، وعيب قصـده حكم عليه بالفسـاد واعتبـر باطلا لاغيا عديـم الأثر ةكأنه لـم يكن)(نظرية أفعال الكلام العامـة – اوسـتن -:٣٩)، ومما لا شـك فيه أن كل ملفـوظ كانت أوصافه كهذه التي وردت في النص، يكون مصيره الفشل في عقد تواصل مع الطرف الاخر، الذي هـو المقصود بـ(الملفوظ /الخطـاب)، فنحـن أمـام قصدية منشـعبة الى قصديـة الملفوظ وقصدية المخاطَب، ولا شـك أننا ننتظر قصدية ثالثة تتمثل في قصدية التأثير في المخاطَب، إذن القصدية هدف مهم في نجاح التواصل لان ذلـك يعني ان هذا الفعل الكلامي او الملفوظ التخاطبي غير عشوائي وهو مخطط لـه، ومن ثم يكـون فهم المراد بتحليـل العبارة والملفوظ مقرونا بحقيقة المقصود من الخطاب من لـدن المتكلم(انظر معرفـة الاخر –مدخل الـى المناهـج النقديـة الحديثـة- :ص٨٤ عبد الله ابر اهيم وسـعيد الغانمي وعـواد علي ط٢ بيـروت ١٩٩٢)، وإذا ما انعكـس هذا المفهوم للقصدية، واجهتنا مشكلة في فهم الملفوظ، الذي قد يؤدي الى عدم فهد قصد المتكلم، ومن ثم فشل التواصـل، إذن نحن امام مسـألة تجاوز العمق الدلالي والتركيبـي (للخطاب/الملفوظ)، الى ما يحيط به، فصار لزاما علينا دراسـة العلاقة بين الرمـوز اللفظية ومسـتعمليها، وطبيعة العلاقة بيـن المتخاطبين وشـخصياتهم، وكل ما يتعلق بهـذا الجانب؛ لفهم القصد، وضمان عدم فشـل التواصـل(انظر النص والخطاب واسـتقصاء البحـث في الخطـاب الدلالـي والتداولي – فان دايـك- :٢٥٧ ترجمة عبد القـادر قنيني افريقيا الشرق ط١- ٢٠٠٠)، إذ لا يمكن تفسير المعنى وفاقا للملفوظ فحسب، من دون التحقق من قصد المتكلم، (أي تفسـير المعنـى بالنظر الى قصد وغايـة المتكلم مـن تواصله مـع المتلقي، فمن ذلك الوقت اتخذت القصدية معنيين اثنين سـارا فـي اتجاهين مختلفين، هما ظاهرية هوسـرل، وقصديـة سـيرل الذي ربـط قصديـة الافعال العقلية بقصدية الافعال الكلامية)(شعر المتنبي في ضوء نظريـة أفعال الكلام :٢٣). إن انتفاء القصديـة عـن الرسـالة (الملفوظ/الخطاب) لا يعدو أن، يكون لغوا أو حبرا على ورق(فلسفة العقل دراسـة في فلسـفة جون سـيرل (صلاح اسـماعيل):٢٣٠ دار قبـاء للطباعـة القاهـرة ٢٠٠٧م).

٣. عدم مطابقة مقتضى الحال وفشـل التواصل:

مقتضى الحال هو الشق الثاني للسياق، وهو ذو حظ كبير بما يسمى بسياق المقام، وإذا كان علم اللغة الحديث واللسـانيات التداولية قد ركـزت على هذا البعد اللالغـوي، فان علماءنا العـرب الأوائل قـد تنبهوا على ذلـك من قبل، حيـن أشـار إليه بشـر بن المعتمـر ت ٢١٠هـ فـي صحيفته المشـهورة وقد أوردهـا الجاحظ ٢٥٥هـ في البيان والتبيين كاملـة، إذ قال فيها (والمعنـى ليس يشـرف بأن يكون مـن معاني الخاصّـة، وكذلـك ليـس يتضّع بـأن يكون من معاني العامّة وإنّما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من المقـال)(البيان والتبيين:١٣٦/١). إن موافقة (الملفوظ/الخطاب) مقتضى الحال يسمح بالاسترسـال في التعامل معه، وتحليله وفهمه، وفقا للعلاقة بين المرسِـل والمرسل اليه، وينتج عن هـذا التعامـل والتفاعـل الأثـر التواصلي المنشـود، وأن الإخـلال بهـذه الموافقة يفضي – بلا شـك – الى تلكؤ الفهـم ، وتعطل القصد، وفشل التواصل.

ومقتضـى الحال أي أن تكـون الظروف – كل الظـروف الممكنة للحدث الكلامي – مهيئة لتحقيقـه، فكثير من الملفوظات ولا سـيما ذات الطبيعـة الإنجازية (الأفعـال الكلامية)، تحتاج الى ظروفها الخاصة، التي تنشـأ فيها، وبدونها لا يمكـن لها أن تعد ملفوظات ناجحة، ولايمكن أن نحكـم بنجاح الانجازيـة، ولا أن نعد العملية التواصلية سـليمة. إن فكرة أوسـتن التي قامت على التواصل التداولـي نظرت الى أن الوحدة الصغرى للاتصال الإنسـاني ليست الجملة ولا أيـة عبارة أخرى، بل هي إنجاز بعض الأنماط من الأفعال(انظر محاضرات في فلسفة اللغة – عادل فاخوري -:١٠٣ وشعر المتنبي في ضوء نظريـة أفعال الكلام:٩)، وبطبيعة الحال ترتبط هذه الأنمـاط ارتباطا وثيقا بالظروف التي تولد فيها، ونسميها مقتضى الحال.

يقـول أوسـتن بعـد أن أورد أمثلـة ذات طابع إنجازي إن الذي أكسـب هذه الأمثلة مقبولية ونجاحـا لفظيا هو مناسـبتها (مقتضى الحال) الذي يجب أن تولد فيه، فمن هذه الأمثلة(نظريـة أفعال الكلام العامـة:١٦) (نعم أقبل أن تكون هذه المرأة زوجتي الشـرعية، كما يتلفظ بهذه الكلمـة «نعم» أثناء حفلة الزواج)...وغير ذلك، نلاحظ أن ظروفا خاصة مرافقة لمثل هذه الأحداث تمثل البيئة الطبيعية الممهدة لولادة هذه الملفوظـات وتحقيقها، ممـا يصعب علينا تخيل أنها تتحقق من دون هذه الظروف، يقول أوستن (وواضـح من هذه الأمثلـة أن التلفظ بالجملة – في المناسـبات المخصوصـة بطبيعة الأمور – ليـس هو أني أصف حـال قيامـي بالفعل، وأنا أتحـدث على هذا النحو، بـل أن النطق بالجملة هو إنجازها وإنشـاؤها...)(نظرية أفعال الكلام العامـة:١٧)، ولا نختلـف علـى أن إنجاز هذا الحدث يعني التواصل الآني مع الطرف الآخر، والتواصـل اللاحـق في قابل الأيـام، فلا يمكن ان يتحقـق الزواج من دون الظـروف العرفية لتحقيقه، بل العكس صحيح، لو كان الجواب (لا أقبل) من أي من الطرفين.(فأنه من الضروري بوجه عام أن يكـون الإيجاب والقبول فيه قائما على رضا الطرف الآخر)(نظرية أفعال الكلام العامة:١٩). ويدعو أوسـتن الـى توفر الجدية، وتجنـب المـزاح والهـزل فـي المواقـف ذات الطبيعـة التواصليـة الانجازيـة(نظرية أفعال الـكلام العامة:٢٠)، وأن لم يتحقق ذلك فأنه (قد يمهد الطريق الى سوء التصرف وقلة الأدب)(نظرية أفعال الكلام العامة:٢١)، وهذا بلا شـك أول إشارة سلوكية ممهدة لفشل التواصل. فأنت إذا ألقيت التحية على شـخص تعرفه ثم بادرت بعبـارة (مبارك، أني أهنئك) من دون أن تكون هناك أدنى مناسـبة لهذا القـول المتعارف على اسـتعماله في مناسـبات معروفة اجتماعيا (أي توافر مقتضى الحال)، ترى الطرف الآخر وقد ظهرت على وجهه ملامح الدهشة والاستغراب ؛ لأن الملفوظ جاء في غير التوقيت المناسـب، وأن استقباله وتحليله من الطرف الآخر سيضعه فـي محل الوهم، مما يبطـل التواصل معك في هذا الموضوع المتعلق بالتهنئة في غير محلها، وقـد يتفاقم الأمر إذا جـاء تحليله للملفوظ تحت باب الاستهزاء والاسـتخفاف، مما يسبب فشلا

تواصليا لغويا آنيا، أو قد يمتد الى المستقبل. إذن لا بـد من توخي مطابقة مقتضى الحال للملفوظ لكي تنجح العملية التواصلية.

٤ـ شروط الإنجازية وفشل التواصل:

ذكرنا آنفا أن الإنجازية عنصر مهم في نظرية الأفعال الكلامية؛ لأنها من مؤشرات نجاح التواصل، وهناك شروط وضعها أوستن لنجاح الفعل الكلامي أسماها شروط الموفقية، أو (شروط نجاح الإنجازية)، كليا أو جزئيا، نفهم منها أن هذه الشروط إذا توافرت كانت سبباً لنجاح التواصل، وإذا اختلت أو اختل بعضها انخفض مستوى نجاح التواصل.

هذه الشروط ستة هي(نظرية أفعال الكلام العامة:٢٦ – ٢٧ وانظر نظرية الفعل الكلامي بين علم اللغة الحديث والمباحث اللغوية في التراث العربي الاسلامي: ٤٣ - ٤٤):

١. يجب ان يكون هناك إجراء عرفي متواضع عليه، له تأثير متعارف عليه، ويتضمن ذلك الإجراء النطق بكلمات معينة، ينطقها أناس معينون في ظروف معينة. وهذا يعني أن اللغة في المنهج التداولي مرتبطة بمستعمليها، وأعرافهم الاجتماعية، مما تعارفوا عليه ، وصار مألوفا مقبولا عندهم، بضمن ألفاظ مخصوصة، لا يمكن استبدالها في تلك السياقات المخصوصة بغيرها، وإذا انتفى تحقيق ما ذكر آنفا فشل التواصل أو انخفض مستواه.

٢. إن الأشخاص والظروف المذكورة يجب ان يكونوا مناسبين للقيام بالإجراء في تلك الحالة. إذ إن من ضرورات المنهج التداولي تواصليا –وكما ذكرنا من قبل- أن التداولية تدرس علاقة العلامات بمستعمليها ، وهنا يظهر جليا أثر هذا الجانب، فبعض الملفوظات/ الخطابات لا يمكن أن تصدر عن أي شخص ، بل لا بد في مواقف معينة، لمن ينطق ملفوظات معينة، أن يكون شخصا بعينه، تؤهله الظروف، والواقع، وموقعه أن يتلفظ تلك الملفوظات، وإذا انتفى تحقيق ما ذكر آنفا فشل التواصل.

٣. صحة أداء الإجراء الخطابي، وعلى جميع المشاركين في العملية التواصلية تنفيذ النهج على وجه صحيح مضبوط. إذ لا يمكن أداء إجراءات الأحداث الخطابية التي تتطلب تنفيذا معينا، متوقعا حصوله، أن يسير على نمط مخالف لما يتوقع أن يسير عليه، وإذا انتفى تحقيق ما ذكر آنفا فشل التواصل.

٤. يجب أن ينفذ ذلك الإجراء كل المشاركين في عملية التخاطب والتواصل - وأقصد بالمشاركين (أي المعنيين بالإجراءات الإنجازية التواصلية)- . نفهم من ذلك أن بعض الإجراءات التخاطبية، (كما في الزواج مثلا)، لا بد من موافقة طرفي الزواج على الزواج. وإذا انتفى تحقيق ما ذكر آنفا فشل التواصل.

٥. على المشاركين أن تكون لديهم النية الصادقة للقيام بالسلوكيات الإنجازية. فقد يستجيب الطرف الآخر ولكن من دون نية صادقة، (كالمجبر على الاستجابة)، أو (الخائف) أو ما يدخل تحت هذه الاستجابات، وإذا انتفى تحقيق ما ذكر آنفا فشل التواصل أو انخفض مستواه.

٦. يجب عليهم أن يقوموا فعلا بذلك السلوك الإنجازي فيما بعد. نعلم أن بعض الإنجازيات تحتاج الى تنفيذ لاحق، لكن هذا لا يمنع من وصف العملية التواصلية لحظة التخاطب بالناجحة، لكن تنفيذ الاستجابات يكون لاحقا، كما لو طلبت من ابنك أو طلبتك المثابرة والعزم للنجاح، ووعدوك بذلك وهم صادقون، لكن ظروفا ما منعتهم من تنفيذ ذلك السلوك، أو أن بعضهم لم يتمكن من تنفيذه، فإذا انتفى تحقيق ما ذكر آنفا فشل التواصل أو انخفض مستواه.

اذا فشل تحقيق الفعل الكلامي وأنجازيته فذلك يعني فشل التواصل تداوليا، وأن (الإخلال بالشروط الستة سيجعل الإنجازية غير موفقة، لكن الإخلال بالشروط الأربعة الأولى سيؤدي الى إخفاق الإنجازية، وعدم حصول الفعل، فالشروط الأربعة لازمة لأداء الفعل، فإذا لم يتحقق واحد منها فإن الفعل لا يؤدى، أما إذا لم يتحقق شرط من الشرطين الأخيرين فأن الفعل يؤدى لكنه يؤدى أداء سيئا)(شعر المتنبي في ضوء نظرية الأفعال الكلامية:٤٤)، وذلك يعني فشل التواصل في الأربعة الأولى، وانخفاض مستوى التواصل في الشرطين الأخيرين.

٥. السياق ووضوح المعنى وفشل التواصل:

اعتمدت التداولية على أثر السياق - السياق الشمولي - في فهم (الملفوظ/الخطاب) فهما سليما فقد (أبرزت التداولية أهمية السياق في تحديد المعنى الذي لا يكتب للحوار النجاح من دونه)(شعر المتنبي في ضوء نظرية الأفعال الكلامية:٤٤). ونحن هنا نريد دراسة كيفية عدم نجاح التواصل في المنهج التداولي وبالنتيجة عدم نجاح إيصال المعنى الذي هو غاية العملية التواصلية؛ لأن التداولية لا تدرس المعنى «بمفهومه الدلالي البحت، بل المعنى في سياق التواصل، مما يسوغ معه تسمية المعنى بمعنى المتكلم، (فتعرف (التداولية) بأنها دراسة المعنى التواصلي أو المعنى الذي يسعى المتكلم لإيصاله للمتلقي بطريقة قد تتجاوز ما قاله حرفيا ليدركه المتلقي بصورة غير مباشرة من السياق)(ستراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية -عبد الهادي الشهري:٢١-٢٢). فالمنهج التداولي ذو أهمية تواصلية، إذ تقوم التداولية (بإزالة الغموض عن عناصر التواصل اللغوي، وشرح طرق الاستدلال ومعالجة الملفوظات)(التداولية عند العلماء العرب:٢٧). إن مسألة عدم الوضوح في المعنى لا تقع على عاتق منتج الخطاب فحسب بل يشاركه فيها المتلقي أيضا، فالتداولية تدرس (التفاعل بين المتكلم والمتلقي ودورهما في إيضاح المعنى ؛ لأن وضوح المعنى يعد عاملا مهما في تحقيق التواصل بين المتكلم والمخاطَب، فالمخاطَب سيفهم قصد المتكلم عند وضوح المعنى، ومن ثم سيتجه الخطاب توجها صحيحا على وفق مقاصد المتكلم) (شعر المتنبي في ضوء نظرية افعال الكلام :٥-٦ وانظرالتداولية وتحليل الخطاب الأدبي- راضية بو بكري:١٦).

إذن من عوامل فقدان التواصل بين المتحاورين يتمثل في عدم وضوح المعنى. إن عناصر التواصل في العملية التخاطبية تتمثل في المرسِل والمرسَل اليه والرسالة والعلاقة المشتركة بينهما، ويُعد المرسِل العنصر الأبرز ؛لأنه منطلَق الكلام، ويرى بعض المتخصصين أن المرسَل اليه أهم من المرسِل نفسه(استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية:٤٦). إن وظيفة اللغة التواصلية تعطي لمستعمل اللغة الطبيعية إمكان التواصل،

وإمكان توظيف العبارات في المقامات المناسبة.(اللغة واشكالية التواصل (عزيز السراج) : ٨٨) (والتواصل المقصود هو من جنس التواصل الإنساني، لأن هذا التواصل هو التواصل الحق((دروس في السيميائيات- حنون مبارك-: ٧٣ص:٧٣ نقلا عن اللغة واشكالية التواصل (عزيز السراج) : http://www. ٠٣sarraji._aljabriabed.net/n٨٨ htm)، ولأن السياق عنصر اجتماعي (سوسيولوجي) فـ (إن كل المجالات المعرفية ذات العمق السوسيولوجي الحقيقي تفرض علينا، مواجهة اللغة)(اللغة واشكالية التواصل (عزيز السراج) : http://www. ٠٣sarraji._aljabriabed.net/n٨٨ htm)، إذ إن اللغة رموز وُظفت لنقل الفكر التواصلي، بإخضاع كل ما يمكن إخضاعه مما يخطر في الذهن أو لا يخطر - ويحق لي أن اطلق عليه تسمية (السياق الشمولي) أي اللفظي واللالفظي – من أجل التواصل، من هنا (لم تعد اللغة تشمل فقط الأنساق اللفظية المنطوقة، أو المكتوبة أو المصورة، بل أصبحت تشمل كل الوقائع الثقافية المرتبطة بنشاط الإنسان وسلوكاته. وعليه فالتواصل بُعد أساسي للغة والثقافة على حد سواء، على اعتبار أن التواصل لا يقتصر فقط على توصيل الرسائل اللفظية أو القصدية)(اللغة واشكالية التواصل (عزيز السراج) : http://www. ٠٣sarraji._aljabriabed.net/n٨٨ htm)، فصار السياق وانتقاء الألفاظ المقصودة بضمن سيميولوجيا اللغة ووضوح هذا الرمز السيميولوجي غاية العملية التواصلية التي قد تتعرض للفشل لولا توخي هذا الجانب، فـ (إذا كان تيار سيميولوجيا التواصل يمثله باحثون "مونان، بويسنس، بريطو... «ينتمون إلى الطرح الوظيفي في اللسانيات الذي يرى أن اللغة تؤدي وظيفة تواصلية مباشرة. فإن رولان بارت رائد سيميولوجيا الدلالة حاول تجاوز تصور الوظيفيين الذين ربطوا بين الدلالة والمقصدية، حيث جنح إلى توسيع حقل البحث في اللغة، على اعتبار أن إنتاج المعنى وتوفير التواصل يمكنه أن يتم بواسطة أنساق لفظية وأنساق غير لفظية. ولعل هذا ما دفع بارت إلى "أن يسند وظيفة التواصل إلى الأنساق اللسانية وإلى الأشياء (...) وبما أن المعنى من إنتاج اللغة، فلا يمكن للسيميولوجيا إلا أن تلجأ إلى اللغة للوقوف على دلالة الأشياء. وبذلك، فاللغة تعتبر نموذجا للسيميولوجيا إذ هي تمدنا بالمعاني والمدلولات، أي نموذج المعاني في السيميولوجيا نموذج لساني. بالإضافة إلى ذلك فإن اللغة مكون للسيميولوجيا إذ يستحيل بناؤها ما لم تكن اللغة عنصرا بنائيا فيها.».) (اللغة واشكالية التواصل (عزيز السراج) : http://www.aljabriabed.net/ ٠٣sarraji.htm_n٨٨).

إن مسألة نجاح التواصل في ما يتعلق بهذا الجانب ينبغي له المرور بآليتين محكمتين الأولى تتمثل بتوخي الوضوح في الرمز اللفظي الموافق للشكل القواعدي والأخرى تحكيم السياق الشمولي (اللغوي والتداولي)(اقصد بالسياق اللغوي أي الذي طرحته الدراسات اللغوية منذ نشاتها عند العرب الى دراسات اليوم وغير اللغوي أي الذي طرحه المنهج التداولي ويتمثل بسياق المقام والباث والمتلقي وطبيعة الرسالة والعلاقة بينهما وكل الظروف

الاخرى التي يمكن ان تدخل في فهم الملفوظ/ الخطاب ومن ضمنها (مقتضى الحال)).

٦. الاسس التداولية وفشل التواصل:

إن التداولية تجمع بين الفلسفة التحليلية، وتمثلها فلسفة اللغة المعروفة، وعلم النفس المعرفي، وتمثله نظرية الملاءمة، وعلوم التواصل، واللسانيات عامة.(التداولية عند العلماء العرب:١٦)، وكل هذه الأمور غايتها بناء تواصل سليم بين طرفي العملية التواصلية، وأن الرافد التواصلي يتمثل في أغراض المتكلمين واهتماماتهم ورغباتهم(التداولية عند العلماء العرب:٢٨)، وأن واحدا من أهم عناصر التواصل التداولي هو (الاستدلالات التداولية)، وهذا يقوم على أعراف اجتماعية، أي خلفية تراكمية لمواقف لغوية وغير لغوية، وسلوكية واجتماعية ونفسية...، سابقة يمكن لطرفي الحوار اعتمادها للتواصل بينهما. وأن من الأسس التداولية ما صنفه الهولندي هانسون بضمن تداولية الحلقة الثانية، تلك المتعلقة (بالخطاب/الملفوظ)، وتتمثل: بالافتراض المسبق والأقوال المضمرة والاستلزام الحواري ونظرية الملاءمة(المقاربة التداولية – فرانسواز ارمينكو- :٣٨).

فـ (في الملفوظين الآتيين:

هل تريد فنجانا من القهوة؟

إنها تحول بيني وبين النوم.

كيف عرف السائل أن محاوره يرفض القهوة؟ وكيف عرف المجيب أن القهوة تحول بينه وبين النوم؟ وكيف تم الاتفاق والتواطؤ بينهما من جهة ، وبين أفراد المجتمع من جهة أخرى على ذلك؟ إنهما يعالجان تلك الملفوظات باستدلالات ومعلومات مستقاة من معارف مستمدة من الواقع الخارجي، وبتواضع من أفراد المجموعات اللغوية المتواطئة على ذلك) (التداولية عند العلماء العرب:٢٩-٣٠). من الواضح ان الملفوظين آنفا يقعان تحت مفهوم (الاستلزام الحواري)، وأن جواب المتلقي غير المباشر أن القهوة تحول بينه وبين النوم مبني على عدة افتراضات منها أن اللغة الاستعمالية بينه وبين السائل تسمح بمثل هذه الإجابة، غير المباشرة، وأن السائل من صنف الفئة اللغوية التي تفهم هذا المبدأ، وأن هذا المبدأ له مرجعية لغوية اجتماعية تراكمية شاع فيها ذلك، ثم إن التجربة السابقة للمجيب مع القهوة سمحت له بهذا الحكم، فيكون السائل متقبلا هذه الإجابة، بوصفها تجربة سابقة له أو يضيفها الى تجربته؛ ليُخضعها هو الآخر للتجربة العملية، هذه أسس تعارفوا عليها ، وبنوا عليها تواصلهم اللغوي الاجتماعي، في ما سلف من الوقت، ولو نُسف أو اختل أي مبدأ من هذه المبادئ العرفية المذكورة آنفا ، لأثار غرابة في نمط الفعل التواصلي المعتاد، ولقاد ذلك الى فشل التواصل الحواري، بظهور علامات الغرابة والدهشة، والتعجب، وربما الأسئلة التوضيحية عما تضمنه الجواب.

إن للتواصل مفاهيم عرفية، ترتبط بالمفاهيم التداولية، وحين لا يستقيم تطبيق المفهوم التداولي يفشل التواصل ، أو يتحول الى مفهوم آخر بالتأويل. فمن المفاهيم التداولية الخطابية الأخرى ما يعرف بـ (الافتراض المسبق «السابق»)، وهذا المفهوم لا ينفصل عن سياق الحال بشكل من الأشكال، والافتراض

(المسبق) يعني أن الملفوظ الحواري لكي يكون تواصليا ينبغي أن تكـون له افتراضات متعددة ومختلفة، (ففي الملفـوظ ١- اغلق النافذة، وفي الملفوظ: ٢- لا تغلق النافذة)

فـي الملفوظيـن كليهمـا خلفيـة افتـراض (مسـبق)، مضمونهـا أن النافـذة مفتوحـة)(التداوليـة عنـد العلماء العرب:٣١)، إن سـياق الحـال يدعـم هـذا الافتـراض، وأن العمليـة التواصليـة في الملفـوظ الأول (اغلـق النافذة) يدعمها سـياق الحـال أنها مفتوحة، وأن سـببا مـا دفـع بالقائل لطلـب إغلاقها، وفي المسـاق التواصلـي يهمُّ المتلقي للقيـام بذلك، وقد يفعل، فيتحقـق الفعل التواصلي، وفـي الملفوظ الثاني (لا تغلق النافذة) يدعم سياق الحال أنها مفتوحة فعـلا، وأن هناك مـن همَّ بإغلاقها لسـبب ما ، ولكن الأمر بعدم إغلاقها مثَّل حدثا تواصليا بين المتحاوريـن، اسـتُجيب له، ولكـن في كل ذلك (أي في الملفوظين) يفشل الحدث التواصلي إذا كان سياق الحال لا يدعم الملفوظ الحواري (أن النافذة مفتوحة)، فيكون الملفوظان خارج نطاق التواصـل التداولي، وعلينـا أن نبحث لهما عن تخريـج، فأما يكون الملفوظان من باب العبث ، أو الوهم، أو الاستخفاف، وبهذا يفشل التواصل، أو ربما يجوز لنا لو أردنا أن نضع سلّما للحدث التواصلي، أن نصف هذا التواصل بالانخفاض الى أدنى مسـتوى له. ولـو كان الملفوظ (كيف حال زوجتك وأولادك؟ فالافتراض (المسـبق) للملفـوظ هو أن الشـريك متـزوج، وله أولاد، وأن الشـريكين تربطهما علاقة ما تسمح بطرح هذا السؤال... ولكن إذا كانت الخلفية التواصلية غير مشتركة بين الشريكين فأن الشريك يرفض السـؤال أو يتجاهلـه، فيجيب بأحـد الملفوظات الآتية:

لا أعرفك

لست متزوجا

لقد طلّقت زوجتي...)(التداولية عند العلماء العـرب:٣١)، فالجـواب الأول (لا اعرفـك)، يعني فشل العملية التواصلية برمتها، إذ لا توجد مشـتركات بين الشـريكين المتحاوريـن البتة، والجواب الثاني (لسـت متزوجا) سـبب فشـلا جزئيا في العملية التواصلية، ويفهم من الجواب أن بينهما علاقة مشـتركة، لكن أحدهما وهَم في توجيه السـؤال، وفي الجواب الثالث (لقد طلقت زوجتـي) أو (ليس لي أولاد) سـبَّب هو الآخر فشلا جزئيا في العملية التواصلية.

إذن اختيـار ملفوظـات معينـة، مـع خلفيات مشتركة، وسـياق حال داعم لذلك يقدم عملية تواصلية تامـة وناجحة، أما الإخفاق في أحد هذه العوامل الثلاثة فقد يؤدي الى فشل كلي أو فشل جزئي في العملية التواصلية.

ومـن مفاهيـم التداوليـة الأخرى الذي تبنـي عليه العملية التواصلية أسسـها ما يعرف بـــ (الأقـوال المضمرة)، وعـدم تحقيق نجاحه كما ينبغي يعني فشـل العملية التواصلية، تقول أوركيوني (القول المضمر هو كتلة المعلومات التي يمكـن للخطاب ان يحتويها، ولكن تحقيقها في الواقع رهن خصوصيات سـياق الحديث)(Limplicite – Katherine oreccheoni p٣٩ : نقـلا عن التداوليـة عند العلماء العرب :٣٢)، فإذا كان الافتراض المسـبق (السـابق) قائمـا علـى أسـاس معطيـات لغويـة مرتبطة بخبـرات تراكمية أوسـياق الحال فـأن الأقوال المضمـرة ترتبـط بوضعية الخطـاب ومقامه، ففي الملفوظ:

السماء ممطرة

قد يظن السامع أن المراد من قول القائل:

البقاء في البيت أو التأخر قليلا

أو الإسراع الى العمل

أو الاستعانة بسيارة المستمع أو المظلة

وتأويلات أخرى كثيرة يتحكم فيها السـياق الكلامـي ، وقـد يتحكـم فيهـا موقـف سـابق(التداوليـة عند العلمـاء العـرب:٣٢). إن حدثاً تواصلياً – ولا شك – قام على هذا الملفوظ الذي يدعمه سـياق الحـال، ولكن لو لم يدعم سـياق الحـال حقيقة الملفوظ، أي لم تكن هناك (سـماء ممطرة)، فأن الحدث التواصلي سـيبطل برمته ويفشل، وسينتقل مفهوم الملفوظ الى شيء آخر لا يدعم العملية التواصلية، وقد يكون سـببا في فشلها.

ومـن دواعي فشـل الحـدث التواصلي الإخـلال بمبـادئ نظريـة المحادثـة لغرايس؛ إذ إن أسـس هـذه النظرية مبنيـة لفهم الخطاب التواصلـي، وأن المبـادئ التـي وضعـت فيها غايتهـا نجاح الحدث التواصلـي الخطابي، ولا بد من عرض مبادئ هذه النظرية لمعرفة كيف يـؤدي الإخلال في التعامل مع هذه المبادئ الى فشل التواصل.

تقوم نظرية المحادثة على مبدأ التعاون بين المتحاوريـن، ومسـلماته أربـع(التداولية عند العلماء العرب:٣٣-٣٤) :

١. مسلمة القدر الكلامي:

أي ليكـن كلامـك بقـدر ما مطلـوب منك من الأخبـار، فالمتلقـي في العمليـة التخاطبية ينتظـر من القائـل أن يقدم له قدرا مناسـبا من الملفوظات، التي تكفي لتغطية الخبر المطلوب، بما يحقق التواصل الناجح الذي لا تشوبه شائبة، فـإذا اكتفى المتلقي من مقدار الملفوظات بالقدر الذي يحقق القول إن غاية المتحدث وصلت الى المتلقـي نكون قـد وصلنا الى عمليـة تواصلية ناجحة، فإذا اسـتطرد القائل في الكلام أكثر مما ينتظر سـبب ذلك بَرَماً للمتلقي ، أو شـرودا في الذهن، أو عدم الاسـتعداد لمواصلة التلقي، مما يؤثر في التواصل الكلامي، فيسـبب فشـله، أو انخفاض درجته، ولست بحاجة الى تقديم أمثلة واقعيـة لذلك، فمَـن منا لم يمر بهـذه التجربة؟ فـي تجمعات ثقافيـة أو مؤتمـرات أكاديمية أو خطابات متلفزة...؟، أما إذا لم يبلغ قدر الملفوظ الكلامي ما يحقـق الكفاية الإبلاغية من إيصال الخبـر، فحكمـه حكم مـا تقدم ولا شـك، أقصد الفشل.

٢.مسلمة الكيف:

ويراد بها أن تكون مشـاركتك صادقة، أي مطابقـة الكلام لمقتضى الواقـع، وأن التواصل تحـت هـذه المسـلمة قد يفشـل في لحظتـه إذا اكتشـف المتلقي أن الملفوظ الكلامي هدف الى تضليلـه، أو قد يتأجـل الفشـل التواصلي الذي يكون لـه – أحيانا – زمنان، زمن التكلم وزمن لاحق بعد زمن التكلم، إذا اكتشـف المتلقي عدم صحة نسبة الملفوظ الذي تلقاه.

٣. مسلمة الملاءمة:

مـن الأمثلـة التي تعيـش معنا قـول مأثور مفاده (فلان يغرد خارج السرب)، أي أنه يقول قـولا لا صلة لـه بما يجري الحديـث عنه، في الحـدث التواصلـي، وهـذا يعني أنـه بعيد عن الحـدث التواصلـي الاجتماعـي، وكل مـن لم تكن مشـاركته ملائمة للحدث التواصلي يكون

تواصله فاشلا، ولا شك في ذلك، فيتسبب بانصراف الطرف الآخر عنه، ويكون بذلك قد حكم على تواصله معه بالفشل.

٤. مسلمة الجهة:

هذه المسلمة كما يذكر غرايس تقوم على ثلاثة أركان:

ابتعد عن اللبس: مما لا شك فيه أن الكلام كلما كان واضحا - كما ذكرنا قبل - كان المتلقي مطمئنا للتواصل مع مخاطبه، فإذا أبهم عليه القول وأكثر المتلقي من عبارات ماذا تقول؟ وماذا أردت؟ وما قصدك؟ وماذا تعني؟ أو لم أفهم غايتك ومرادك وقصدك....الى غيره من تلك العبارات التي تكون أحجارا كأداء في انسيابية التواصل، كان ذلك سببا في فشل التواصل بينهما.

تحرَّ الإيجاز: مواقف كثيرة هي التي مررنا بها في حضورنا تجمعات مختلفة، فإذا ما بدأ المتكلم خطابه انصرفنا اليه، فإذا أطنب وكرر وأطال انصرفنا عنه، وما ذلك الا مؤشر على فشل المتكلم في استقطابنا إليه، ما يعني فشل التواصل معه؛ لأنه أوغل وأطال كلامه، فلو تحرى الإيجاز في كلامه وأوصل مقصده بأقصر العبارات لحصل على تواصل ناجح، لأن طبيعة النفس البشرية تضجر وتمل وتنصرف عن الشيء إذا بالغ في غايته.

تحرَّ الترتيب: من المهم جدا في التواصل حسن ترتيب الملفوظات، بما يناسب الأفكار، فذلك يسهم في وضوح القصد وعدم تيه المتلقي، فإذا ما شعر المتلقي بعشوائية أفكار الخطاب أو الحوار ، وأن هذه الأفكار مبعثرة غير سليمة كان ذلك ممهدا لفشل التواصل في أي لحظة ممكنة بينهما.

أخيرا أود أن أشير الى أنني سلطت الضوء على ما كان في متناول اليد، مما يمكن أن يعد سببا في فشل الحدث التواصلي ، في لغة التخاطب العملية (التداولية)، وربما لم استوف كل المؤشرات التي يشملها هذا الجانب، فقد تجاوزت عيوب اللسان والتواصل، وتجاوزت اللحن والتواصل و...، وقد يأتي من بعدي من يوسع دائرة البحث والتقصي ليضيف أسبابا أخرى، تدخل عاملا من عوامل عدم نجاح الحدث التواصلي؛ لأن أساليب تناول اللغة وفهمها وتحليلها متعددة، ومتجددة، ومرتبطة باكتشافات مناهج لسانية جديدة.

مصادر الدراسة

Limplicite – Katherine orecchioni

استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية – عبد الهادي الشهري – دار الكتب – بيروت – ط١ - ٢٠٠٤

برجماتية اللغة ودورها في تشكيل بنية الكلمة - ريم فرحان المعايطة – ط٢ عمان – الأردن ٢٠٠٢

البيان والتبيين – الجاحظ ت ٢٠٠هـ

التداولية امتداد شرعي للسيميائية – ا.عبد الحكيم سحالية – بحث منشور في وقائع الملتقى الخامس "السيمياء والنص الأدبي"

التداولية وافعال الخطاب عند الصادق ع مؤيد بدري السهلاني بحث منشور في مجلة الاستاذ ع٢٠٥ سنة ٢٠١٣

التداولية وتحليل الخطاب الأدبي - راضية بو بكري – بحث منشور في مجلة الموقف الادبي ع٣٩٩ – ٢٠٠٤م

دروس في السيميائيات - حنون مبارك - دار توبقال للنشر،ط.١ س.١٩٨٧

السيميولوجيا والتواصل – ايريك بويسنس – ترجمة جواد بنيس

شعر المتنبي في ضوء نظرية افعال الكلام - محمد هريس- رسالة ماجستير ٢٠١٦

عنف اللغة واشكالية التواصل - مصطفى بحر محمد - http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=٤١٠٦١٣ مؤسسة الحوار المتمدن العدد٤٤٢٦ منشور في ٢٠١٤/٤/١٦

فلسفة العقل دراسة في فلسفة جون سيرل - صلاح اسماعيل- دار قباء للطباعة القاهرة ٢٠٠٧م

لغة العنف وعنف اللغة مقاربة لسانية نفسية - أ.د. مراد موهوب – بحث منشور على النت تحت هذا العنوان

اللغة واشكالية التواصل - عزيز السراج http://www.aljabriabed.net/n٨٨_sarraji.٠٣htm

محاضرات في فلسفة اللغة – عادل فاخوري – دار الكتاب – ط١- ليبيا - ٢٠١٣

مدخل التواصل اللغوي - د.محمد البشري- http://mountadaelhouria.maghrebarabe.topic-net/t٧٥٨

معرفة الاخر – مدخل الى المناهج النقدية الحديثة - عبد الله ابر اهيم وسعيد الغانمي وعواد علي ط٢ بيروت ١٩٩٢

المقاربة التداولية – فرانسواز ارمينيكو- ترجمة د.سعيد علوش مركز الانماء القومي د ت

النص والخطاب واستقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي – فان دايك - ترجمة عبد القادر قنيني افريقيا الشرق ط١ ٢٠٠٠

نظرية أفعال الكلام العامة - جون اوستن

نظرية الفعل الكلامي بين علم اللغة الحديث والمباحث اللغوية في التراث العربي الاسلامي –هشام عبد الله خليفة – ط١ لبنان ٢٠٠٧م